

أبحاث تاريخية عبرية

## الاسلام في غرب أفريقيا

مدى انتشاره في تلك الأقاليم وبلغ أثره في الأهلين

للأديب جمال الدين محمد الشيال

تابع ما نشر في العدد الماضي

—&gt;&gt;&gt;000000&lt;&lt;&lt;—

## كيف عم الاسلام غرب أفريقيا

١ - في المدة التي بين سنتي ٦٤٠ و٦٤٢ تم لمعروبن العاص فتح مصر . ومنها استطاع عبد الله بن أبي سرح وعبد الله بن الزبير فيما بعد فتح طرابلس وتونس والجزائر

٢ - وفي سنة ٦٦١ كانت واقعة صفين الشهورة وانشق بعدها قوم على علي بن أبي طالب فسموا بالخوارج . وقد هاجرت فئة منهم إلى شمال أفريقيا ونزلوا بشواطئ تونس ، وقد استمرت بقاياهم حتى قبيل الحرب العظمى في جزيرة جربا Jerba . وهناك انتشرت آراؤهم . ومن هذه الجزائر انتقلت هذه الآراء إلى شمال أفريقيا حتى ساحل مراكش الأطلسي ؛ وبعد سنة ٧٢٠ أصبحت الخارجية مذهب الأهلين من البربر

٣ - وفي سنة ٦٦٩ استقر حكم العرب في شمال أفريقيا ، وعين عقبة بن نافع حاكماً على أفريقيا (تونس الحالية) ؛ وفي سنة ٦٧٣ أنشئت القيروان لتكون حاضرة لحكم المسلمين . وفي سنة ٦٨١ تقدم عقبة نحو الغرب ببيشته حتى وصل إلى المحيط الأطلسي

٤ - وبعد سنة ٧٩٥ تولى حكم أفريقيا موسى بن نصير وتقدم في فتوحه حتى استولى على مراكش إلا مدينة سبتة Septa وهناك لم يجد العرب صعوبة في نشر الاسلام دين الفطرة . وتمكن موسى من فتح الأندلس بعد ذلك على يد قائده البربري طارق بن زياد

٥ - وتولى حكم أفريقيا بعد هذا الإدارة ثم الأغالبة وتبعهم أسرات آخر حتى أتى الفاطميون فورثوا الحكم وأغاروا على مصر واستقلوا بها باسطين نفوذهم على أفريقيا وصلية

٦ - وفي المدة التي بين القرن السابع ومنتصف القرن الحادي عشر كان العنصر العربي في شمال أفريقيا أقلية يمثلون في آلاف من الجنود والحكام ورجال الدين . ولكنهم استطاعوا بمرور الزمن أن يفرضوا دينهم ولفهم وحكمهم على ملايين من البربر

٧ - وحوالي سنة ١٠٤٥ نزل بالشاطي الأيمن للنيل قبائل بني هلال وبني سليم آتين من أواسط بلاد العرب وابتدأوا يعملون على إثارة الشغب في مصر العليا ؛ ولكي يتخلص منهم حكام مصر الضعفاء في ذلك الحين حرضوهم على أن يغزوا شمال غرب أفريقيا ، فعبر الصحراء منهم ما يقرب من المائتي أو الثلاثمائة محارب حتى وصلوا إلى حدود تونس وطرابلس واستقروا هناك

٨ - وبعد مدة يسيرة رحل إلى مصر قبائل أخرى من شبه جزيرة العرب ووصلوا إلى النيل الأوسط . وعلى النيل الأزرق (في سنار) أنشأوا امبراطورية الفنجج Fung العظيمة التي استقرت من القرن الرابع حتى القرن التاسع عشر . ومن النيل الأعلى قاد هؤلاء الأقوام حملات كثيرة متتالية نحو وسط وغرب أفريقيا . ومن نسل هؤلاء تكونت قبائل لازالت تعيش حتى اليوم حول بحيرة شادو في دارفور وواداي وشمال السنغال ونهر النيجر

٩ - وفي القرن الحادي عشر أيضاً نشأت فرقة الرابطين . وعلى أيديهم اعتنق سكان سينغامبيا Senegambia ونيجريا الاسلام

١٠ - وتلت دولة الرابطين دول كثيرة كدول الموحدين والحفصيين وغيرهم ، وكانت كل دولة تبدأ حكمها بنشر مذهبها الديني ، وبالتالي كانت تدفع كثيراً من البربر أثناء نشر دعوتها إلى اعتناق الاسلام

١١ - وفي عهد الملك السعدي السادس «المنصور الذهبي» وصلت مراكش إلى أقصى قوتها ، وشملت مملكة نيجرية واسمة

١٢ - وفي نهاية القرن الخامس عشر قامت في مصر العليا وغرب السودان أسرة مسلمة زنجية . وتولى أحد هؤلاء الزوج الحكم ، وأخذت بمكنو حاضرة للملك . ومنذ ذلك الحين أصبحت هذه المدينة مركزاً علمياً وتجارياً لغرب ووسط أفريقيا . ولقد أرى حفيد هذا الملك «إسحاق بن سو كيا» Ishak bin Sokya وزادت قوته وبدأ النزاع بينه وبين الامبراطور الموري moorish

انتشاره، بل كان مجرد الجوار أو الاتصال بين المسلمين والوثنيين في جميع قبائل السودان حتى حدود الكرون - كان مجرد الاتصال كافياً لنشر الإسلام في تلك الجهات كما سنرى بعد

لم تخضع مراكن بجاراتها للحكم التركي ولكنها تأثرت بنواح تركية مختلفة، فقد أخذت عن الترك نظام اللبس ونظام تمبشة الجيوش ولقب الباشا وغير ذلك من الأمور، ولكن مراكن بقيت مستقلة، بل لقد أعلن حاكمها النصور نفسه خليفة سنة ١٥٣٨ بعد انتصاره على البرتغال وبعد أن رأى الخلافة العباسية تنقرض من مصر، وانتقل إلى تركية

غير أننا سنرى أن نوع الحكم لم يكن له من التأثير قدر ما كان للثقافة الإسلامية العربية، فهما انتقل الحكم إلى أيدي الترك أو الإغريق أو السلاف أو الزوج المستعربين فإن الأثر الإسلامي والثقافة الإسلامية امتدت حتى شملت كل شمال أفريقيا والسومال وسناو ونوبيا وكردقان ودارفور ووادي بورنو وأراضي الحمصا والصحراء ومعظم سينمبيا وأفانقا متسعة داخل حدود النيجر وعلى طول شواطئ القلتا Uollta الأعلى كما اعتنق أهالي كل تلك الجهات الدين الجديد: دين الإسلام

### مهربات نجرها

ولقد كنت أحس عند قراءتي عن هذه المناطق لندة غربية فلقد كنت أكشف لنفسي الأستار عن آفاق واسعة شاسعة من العالم الإسلامي يجملها معظم المصريين ويجملها برامج تعليم التاريخ في مدارسنا المصرية، ولكننا بعد هذا التمهد نستطيع أن نصور الحالة التي كان عليها كل شمال أفريقية في هذه السكيات:

كانت موجة التأثير الإسلامي تنسج طوال العصور الوسطى وتشمل كل يوم آفاقاً جديدة من شمال أفريقية، وامتدت الموجة فشملت بعض العصور الحديثة؛ ولكن أوسع حلقة من حلقات هذه الموجة وآخرها تلاشت بأنتهاء القرن التاسع عشر، وبتلاشيها تركت البربر المستعربين يحكمون شمال وشمال غرب أفريقية، والترك المسلمين يحكمون شمال شرق أفريقية، والزوج المستعربين يحكمون النيجر والسودان الأوسط، وبعض العرب يحكمون النيل الأعلى وساحل نوبيا، وعرب عمان واليمن وحضرموت يحكمون ساحل أفريقية الشرق. وامتد نفوذهم إلى الداخل حتى وصل إلى إقليم البحيرات والكنتز الأعلى

أبي العباس النصور. وتمكن الجيش الموري بقيادة جودر باشا Juder Basha من هزيمة إسحاق والاستيلاء على تمبكتو. وأتى بعد جودر قائد آخر أكثر شجاعة وإقداماً منه وهو «محمد باشا» فآثم الفتح الموري للسودان حتى وصل إلى بورنو Bornu وسينمبيا. ولم تتضاءل قوة المورين إلا في القرن الثامن عشر بعد قيام النولا وهجوم الطوارق

ويقول جونستون: «ولربما كانت مراكن تستطيع أن تغزو شمال أفريقية وتحكمه في القرن السادس عشر - لولا أن وصلها الترك...» (١) - ونحن لا نستطيع أن نقر جونستون على هذا القول... إلا إذا كانت الحكومة القائمة في مراكن حينذاك قوية تستطيع أن ترد اعتداء الغرب عنها... ولكن الحقيقة أن الحكومة في كل بلاد المغرب في ذلك الوقت كانت ضعيفة أمام نشاط ممالك غرب أوروبا وخاصة أسبانيا - فإنها بعد أن قضت على دولة الإسلام فيها سمت وراهه تطارده في شمال أفريقية وغيرها... وجونستون نفسه يقول: «ولما استنجد أهل الجزائر وتونس بقراصنة الترك ضد اعتداءات مسيحي أسبانيا في القرن السادس عشر - انتهز سلطان الترك الفرصة وأنشأ مناطق تركية في الجزائر سنة ١٥١٧ وفي تونس سنة ١٥٧٣ وفي طرابلس سنة ١٥٥١...»

فن هذا القول نرى أن ثورة الغضب المسيحي في أسبانيا على المسلمين لم تكن قد هدأت؛ بل إننا لنحسها بين ثنايا كلمات جونستون قوية ملتهبة دفعت أهل المغرب للاستنجد بالترك ورضوا نجدة القراصنة منهم. وحقيقة أن الترك الذين نزلوا بشمال أفريقية كانوا قراصنة لم يتعدوا الشاطيء إلى الداخل، ولم يضموا إليهم أراضي وملكا جديداً بل اكتفوا بمهنتهم القراصنة وسلب سفن المسيحيين. ولو أنهم حاولوا ملكاً في الجنوب لاستطاعوه، ولغدت أفريقية الشمالية كلها مسلمة إسلاماً حقيقاً متصلاً بالعالم الخارجي الآن، ولكنهم على كل حال حمو شمال أفريقية من الغرب الساحق الماحق هذه المدة الطويلة. وها نحن أولاء نسمع كل يوم عن اضطهاد الطليان والفرنسيين والأسبان للمسلمين في طرابلس وتونس والجزائر، ومع هذا فإن الإسلام في ذلك الحين لم تقف موجة

(١) الكتاب السالف الذكر من ٦٩

ويعجذون الأولياء الراحلين ويسمحون لتسائمهم بالخروج سفارات .  
ولقد لاحظ « أوليفيلد Oldfield » في رابا Rabba أن ابنة عثمان  
زايكي Osman Zaiki حاكم نوييلاند الفولاني تحمل في يديها  
زجاجات برتقالية مملوءة بالمشروبات الروحية ، فشرب الخمر وعقيدة  
الخلود لازلا سائدين

ولا زالت بعض الطقوس الوثنية تقام عند تولية الأمير العرش؛  
ورؤساء « اكوين Akvain » المسلمون في هارداوا Hardaua  
عند اتخامهم يقدمون فروض الطاعة للشجرة المقدسة

والقرآن لديهم هو الكتاب المقدس ؛ بل إنهم ليستشفون  
بشرب الخمر الذي كتبت به آيات القرآن . وهم مازالوا يعتقدون  
في السحر والتعاويذ ، ولكنهم يتقون شر السحر بالآيات القرآنية  
والأحجية يحيطون بها رقابهم وأذرعهم وأوساطهم  
والمسلمون في تلك الأقاليم عند بناء منازلهم يدخلون الطلامم  
لتقيهم شر الأرواح الخبيثة

من هذا كله نرى أن الاسلام من الناحية الروحية لم يستطع  
تماماً استئصال شأفة الوثنية أو إزالة خرافاتها لاقطاع الصلة  
وبعد الشقة بينه في تلك الجهات وبين ديار الاسلام القوى  
الحق . ولكن الاسلام من الناحيتين السياسية والاقتصادية  
بادى الأثر في هؤلاء الأقبام . لقد حمل الحضارة إلى هذه القبائل  
التبريرة ، ودعا جماعات الوثنيين المبعثرة إلى وحدات مترتبة ،  
وسهل التجارة بين هذه المناطق وبين العالم الخارجى ، وبذلك  
استيقظت الفرائد التجارية الكامنة في نفوس الحوصا Hausa  
والتوبى Nupe والياروبا Yaroba والبري برى Beri Beri . وحملهم  
على الظهور بمظهر لائق ، ورفع مستوى معيشتهم بأن خلق لهم جواً  
اجتماعياً رافياً ؛ وبث في نفوس المسلمين الشعور بالهزة واحترام  
النفس والغير . فتفوق المسلمين في تلك الجهات على غيرهم من  
الناحيتين الثقافية والسياسية يرجع إلى تعاليم دينهم ؛ فحن  
لا نسى أن الاسلام حمل إليهم فن القراءة والكتابة ...

والآن أصبح زنجى السودان بعد أن حرم عليه الاسلام  
شرب الخمر وأكل لحوم البشر وسفك الدماء رقيقاً لسكان العالم  
التحضر

ولتحدث الآن عن أثر الإسلام في بعض هذه الولايات كمثل  
لولايات الأخرى ؛ وليكن حديثنا عن نيجريا والسودان الأوسط

### مضارة جديرة

كان لدخول الاسلام في افريقية تأثير هام على سكانها وخاصة  
في السودان الغربى . ولم يقتصر تأثير الاسلام على التغيير الواضح  
الذى أحدثه في الأهلين من الناحية البشرية ، بل لقد حمل معه إلى  
هؤلاء الأقبام حضارة جديدة منحت الأجناس الزنجية أخلاقاً  
وثقافة لازالت تميزهم في حياتهم السياسية ونظمهم الاجتماعية .  
ولقد رأينا كيف أن كثيراً من الهجرات القبلية العديدة خلال  
ألف السنة الأخيرة حدثت تحت ضغط الاسلام ضغطاً مباشراً  
أو غير مباشر ؛ بل إننا نرى أن ثورة الفولاني السياسية في القرن  
التاسع عشر ودخول الكانبو Kanembo إلى بورنو كان تحت  
تأثير الاسلام . ولقد كان للاسلام كذلك تأثير عميق في لغات  
نيجريا الرئيسية ، فمعلمها تحوى كثيراً من الألفاظ العربية التى  
لا تزال تستعمل حتى اليوم

\*\*\*

والاسلام الآن دين السواد الأعظم من سكان أرض حوصا  
Hausa Land و بورنو Bornu بل لقد نفذ الاسلام إلى كثير  
من القبائل الوثنية التى لم يصلها التبشير المسيحى بعد ، وكما أن  
الاسلام دخل في هذه الجهات من الشمال فان الشمال أشدها  
وأكملها إسلاماً — وإن كان الاسلام في نوييلاند Nupeland  
ويوروبالاند Yorubaland له نصيب كبير من القوة والانتشار  
ومع هذا فهناك مساحات شاسعة لم يدخلها الاسلام بعد

ونحن لانعرف إلا قليلاً عن حالة المسلمين خلال القرون  
السابقة لجهاد الفولاني . ولو أننا وثقنا بأقوال ليو الأفريقى Leo  
Africanus فإن أهالى كاتسينا Katsina وكانو Kano كانوا  
برابرة نصف عمراء في منتصف القرن السادس عشر . وعلى الجملة  
فالحوصا قد يكونون أيسر قيادة وأسرع تأثراً بالدعوات الدينية  
من غيرهم . وفى سنة ١٨٠٤ وضع الشيهو عثمان Shehu Osman  
( قد تكون شاه أو شيخ ثم حرفت ) بللاط جوير Gobir نظاماً  
هو خير قليلاً من النظام الوثنى ، وقد بق الأهلون يصلون للموتى